قراءة في ديوان

« في القدس قد نطق الحجر »

للشاعر خالد أبو العمرين

على خريطة الشعر الإسلامي الفلسطيني المعاصر ثمة أصوات متباينة ، قدمت الكثير من الشعر الجيد الذي يستحق الذكر والمتابعة ، فضلاً عن الدراسة ، ولئن كان محمود مفلح قد برز وتميز من بين هذه الأصوات كشاعر كبير قدم في هذا المجال ما يستحق أن يضعه في مصاف كبار الشعراء الفلسطينيين المعاصرين ، إن هناك أصواتاً أخرى لم تظهر بشكل جيد نظراً لعدم وجود منابر إعلامية تبرز هذه الأصوات ، أو بسبب سيطرة من لا يحبون للصوت الإسلامي أن يظهر في كثير من هذه المنابر .

من الأصوات الجديدة في هذا المضمار والتي لم تظهر إلا مؤخراً ، الشاعر خالد أبو العمرين ، وكما يبدو من خلال مجموعة من المقابلات معه-لا يبدو راضياً عن المستوى الذي بلغه الشعر الإسلامي حتى الآن ، وهو يتمنى أن يتطور هذا الشعر ليكون بمستوى الرسالة الإنسانية للإسلام العظيم . وبالطبع فهو لا يستثني نفسه من هذا الكلام .

هذا الفهم لطبيعة المستوى الذي بلغه الشعر الإسلامي والذي يكاد يجمع عليه أكثر نقاد هذا الشعر ومحبوه، لا بد أن يكون حافزاً لتطوير هذا الفن والارتقاء به والتخلص من سجن الوعظ المباشر الذي حشر فيه زمناً طويلاً .

* نشر المقال في صحيفة "الشرق الأوسط" اللندنية - ٤/٨/ ١٩٩٠ .

يفرق أبو العمرين بين الشعر الذي أعد للالقاء في الندوات تجاه قضية معينة ، والشعر المقروء الذي يحتاج إلى قراءة وتأمل ، وهو ما زال يرى أن جزءاً لا بأس به من تجربته كان من الصنف الأول .

الديوان الذي بين أيدينا هو الوحيد للشاعر وقد صدرت مؤخراً الطبعة الثانية منه بعد نفاد الطبعة الأولى خلال أقل من عام . ولأن فلسطين هي الهوى والحلم والقضية والعقيدة عند الشاعر ، يأتي الديوان من ألفه إلى يائه للتغني بفلسطين وبقضية فلسطين وتمجيد الانتفاضة المباركة . والقدس هي عنوان فلسطين ، والشاعر عندما يغني لفلسطين فيجب أن تكون القدس فاتحة النشيد ، ولولا ذاك لكان يجب أن يكون عنوان القصيدة أو الديوان: «في غزة قد نطق الحجر »، أو «في جباليا قد نطق الحجر» ، أو حتى في بلاطة ، ولكن القدس تظل هي العنوان وهي المركز ، وهي كما قال عنها :

والقدس أرض الأنبياء

والقدس حلم الشعراء

والقدس للدنيا القمر

ولأن القدس هي القمر وهي الأرض وهي العقيدة، كما قلنا، وهي الحضور ، وهي الغياب، تراها تتبختر في مساحة الديوان كله ، فارضة نفسها في كل حرف من حروفه، وفي كل نبضة من نبضاته ، وفي كل دفقة من روح الشاعر .

«هذي طريق القدس من عظمي تمر
أنا الذي دمي يسيل صاخباً كما النهر
وتسكن الرعود في جبيني الأغر
في القدس قد نطق الحجر
لا مؤتمر .. لا مؤتمر
أنا لا أريد سوى عمر
أنا لا أريد سوى عمر».

الشيء الآخر الذي يظل صهيله حاضراً في كل شبر من ربوع الديوان ، هو الحجر. الحجر هو رمز النضال الفلسطيني في زمن الانتفاضة . وهو الأغنية التي ترددت على لسان الشعراء وصيغت فيها الملاحم ، حتى قال أحد الشعراء بأن الحجارة التي ألقيت من قصائد الشعراء حول

الانتفاضة ، كانت أكثر من الحجارة التي ألقاها أطفال فلسطين على الجنود الصهاينة .

لقد أصبح نشيد الحجر هو النشيد الأكثر عذوبة في زمن الانتفاضة الثورة ، وأصبح هذا الحجر الأصم ، نابضاً بالحياة ، متفتحاً كأجمل الأزهار. ألم يقل رب العزة في كتابه «وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشّقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون». ثم ألم تكن هذه الحجارة نفسها هي سلاح الطيور الأبابيل التي قضت على جيش أبرهة عندما قدم لهدم الكعبة؟

لكن شاعرنا في معرض تغنيه بهذا الحجر لم ينس ، الذي انطق هذا الحجر وجعله أسطورة في تاريخ ثورة الشعوب المستضعفة على جلاديها ، وخاصة الشعب الفلسطيني البطل . إنه الرجل ، إنه الجنرال الذي انطق هذه الحجارة . وجعل لها نشيداً عذباً تتردد أصداؤه في كل جنبات الكون ، هؤلاء الجنرالات الجدد يخاطبهم الشاعر فيقول :

«مروا على صحراء قلبي يورق الأمل

تَخْضرُ تحت خطاكم الأرض وتشتعل

مروا فأصغركم هو البطل

مروا خطاكم تحتها الينبوع يكتمل

والقدس يحميها لنا طفل ».

ويقول في موضع آخر :

«اضرب تحجرت القلوب وما لها إلا الحجر

اضرب فمن كفيك ينهمر المطر

في «خان يونس» في «بلاطة»

في البوادي والحضر».

من أيام بدر وأحد

والانتفاضة عند الشاعر ليست فعلاً منبتا، تولد من رحم السراب ، إنما هي فعل جهادي يمثل امتدادا لتلك البطولات التي سطرها جند الإسلام بدءاً من بدر وأحد وانتهاء بآخر الانتفاضات والثورات في زماننا المعاصر، والتي جعلت من الإيمان والقرآن مشعلاً ينير دربها نحو العزة والتحرير . .

«أحبائي وأنتم نور عيني وآمالي وأحلامي الكبار

وأنتم ارث يرموك وبدر وأنتم في عيونهم الغبار

obeikandl.com

أناديكم وفي قلبي حنين

وفي شفتي طال الانتظار».

وفي قصيدة «ماذا قالت الحجارة» يصل الشاعر الماضي بالحاضر في لوحة عشق جميلة يستلهم فيها المعاصرون أمجاد السلف ، وهم يحاولون عبور بوابة المجد . . .

« يا أمة من زرعوا الرايات

على كتف الليل فأورقت قمرا

يا أمة من ركض التاريخ

على صهوات خيولهم وجرى

كانت اكليلاً في عنق الدنيا

كانت تلد الطائر نسرا » .

● جدلية الشعر والسياسة

في أغلب سطور الديوان تشتبك السياسة والشعر ، تغلبه حيناً ، حتى لا تبقي له شيئاً ، ويغلبها حينا آخر فتكون اشراقات كأجمل ما يكون الشعر ، وتكون هدنة أحياناً أخرى ، وقد يكون صراعاً لا غالب فيه ولا مغلوب.

ربما كان من الصعب أن يكتب الشاعر عن فلسطين ولا يقع أسيراً للشعار السياسي ، بل إن الشاعر العربي مهما حاول أن يبتعد ، فإنه لا محالة واقع ما بين أشواك السياسة التي يتنفسها المواطن العربي مع الهواء ، فكيف بالشاعر الذي يعيش قضية تأخذ عليه قلبه ووجدانه . ولكن التوازن يجب أن يظل سيد الموقف بحيث لا يقع الشاعر أسير الخطاب السياسي الفاقع ، المحمول على أكتاف اللغة العادية التي تحوله إلى خطيب يعتلي منبرا سياسياً . وقد وقع شاعرنا في كثير من الأحيان في هذا المطب . . .

«خلوا الشجب وخلوا الاستنكار لكم

شكراً شكراً

حجر . طفل ، وامرأة فعلوا السحرا

أغلق صوت المذياع لا تذكر لي خبرا

اضرب غسان فطوب الأرض

ينادي شبرا ، شبرا ».

أو قوله :

« من أين أبدأ يا عيون الشعر يا وطن الجدود

من عنتريات الإذاعة والتشدق والوعيد
من ملحمات في الإذاعة وازدحام في الوقود
أم من بطولات المنابر والبيانات الرعود » .

والخطاب السياسي يظل مقبولاً في الشعر حينما يجيء مبحراً على مركب مزين بالصور الشعرية والاشعاعات الجميلة ، وكثافة في الايحاء . هنا يكون الشعر أجمل ، وذلك حين يحمل السياسة، لا حين تحمله السياسة . وفي الديوان الكثير من المقاطع المتميزة بروعة صورها وكثافة إيحاءاتها . .

«حلمنا مات على الطرقات يا شيخي المصابر
ينحت الموال من صخر المقابر
صار جسماً من بكاء
حوله يعلو العواء
صار كالاسفلت أثر الوطء
مسترقاً شخيره
عندما تسقط شمس اليوم

obeikandi.com

فوق أسوار الظهيرة

ضاع في زحمة أنصاف الرجال

لم يؤبّن

لم يواروه التراب»

● الشعر الحر والقافية

ربما كان من أهم ميزات الشعر الحر، اضافة إلى اعطاء الفرصة للشاعر لكي يتدفق شعورياً بأي كم من المقاطع التي يحتاجها لاستكمال تدفقه الشعري ، هو التخلص من الحاح القافية كما في الشعر العمودي ، ولكننا نجد الشاعر أبو العمرين يحمل نفسه أكثر بكثير حتى مما يتطلبه الشعر العمودي ، فهو يلح على القافية الموحدة في كل شطر ، مما يتعبه في استجدائها . كما يتعب القارئ الذي يلهث وهو يقرأ القافية المتلاحقة ، والتي لا تعطيه فرصة لتأمل المقاطع الشعرية . .

لقد رأينا في مقاطع كثيرة كيف أخل الشاعر بإصراره على وحدة القافية في كل شطر بجمالية هذه المقاطع . ونحن هنا لا ندعو إلى التخلي عن القافية بقدر ما ندعو إلى تهذيبها بحيث لا تصبح هدفاً في ذاتها ، بل تأتي طبيعية

obeikandi.com

غير متملقة ، حتى ولو جاءت مرة في كل خمسة أو ستة أسطر.

● الرموز التراثية

من المؤسف القول: إن توظيف الرمز الإسلامي بطريقة ابداعية عند الشعراء الإسلاميين ما زال دون المطلوب والمؤمل بكثير ، حيث نلمح أغلب هذه التوظيفات تأتي عادية ومسطحة ، وتستخدم الرموز المعروفة جداً والتي نجدها عند أغلب هؤلاء الشعراء وبنفس الأسلوب ، أي صيغة التذكير بالأمجاد ، كذكر أسماء الصحابة والمجاهدين أمثال سعد ، وخالد، وعكرمة . . . أما الرموز القرآنية وهي كثيرة وغنية بالدلالات فلا نلمح لها توظيفاً يذكر ، ولكن الشاعر أبو العمرين ، ورغم ندرة توظيفه للرموز القرآنية ، إلا أننا نعثر له على بعض التوظيفات الجميلة في بعض القصائد :

« أنا الذي أحبه الحجر

واخوتي في البئر القوني

وما تركوا أثر »

أو قوله :

obeikandl.com

« لا تلقموا الطعم ولو كان ذهب

وحجارة السجيل عنوان الغضب

أو كلما ضاءت بأفقي نجمة

جاءت لتطفئها جيوش أبي لهب ».

وبعد ، فهذه جولة سريعة في ديوان الشاعر خالد أبو العمرين « في القدس قد نطق الحجر » الذي يعد بحق إضافة جديدة إلى سجل الشعر الإسلامي . كما يبشر بعودة فارس قوي إلى حلبة هذا الشعر . فارس يمتلك أدواته الخاصة ، وصوته المتفرد ، مما يجعلنا نستبشر بجديد للشاعر أكثر قوة وتميزاً ، يتجاوز عثرات هذا الديوان ويضيف إلى حسناته ، لتربح ساحة الشعر الحقيقي الصادق فارساً جديداً.

●●●

obeikandl.com